سامية : او الحب والوفاء

قصة مصرية تاريخية من عهد نابليون

(٢)

لما علم بذلك خالد سرّ سروراً عظيماً واستحكت بينهُ و بين مراد عرى الصداقة والولاء فكان لا مؤنس لهُ غيرهُ لما تحلى بهِ من الرقة ومحاسن الخلال وكان يتردد كعادتهِ الى قصر ابرهيم فزاره يوماً وسأل عن سامية فعادتها امها فمنعها الحياء عن الحضور لانها لم تكن رأت خالداً الاَّ يوم مجيئهِ بابنها الى القصر عقب اصابتهِ في واقعة امبابة. فقام ابرهيم واخذ بيدها واتى بها فامرت لها امها بالجلوس فجلست وهي مطرقة خجلاً وعليها نقاب لطيف يشفُّ عن ذلك المحيَّا الفتان. وكان خالد يحبها و يريد ان يتزوجها وابوه يرى في اقترانهِ بفتاة غير عربية ما يخالف سنة العرب في المحافظة على النسب وهو عندهم حليف الشرف والحسب و يريد ان يزوجهُ بابنة عمهِ سعاد . ولكن خالداً كان لا يهوى غير سامية فكاشف اخاها برغبتهِ و بعد ايام اصيبت امُّ ابراهيم بمرض كانت فيهِ منيتها

***

فجزع ابرهيم من كؤوس الصروف صنوفاً ، وسدَّت في وجههِ مسالك الرزق بعد قتل الجنرال كليبر ، وكان لهُ عمٌّ غنيٌّ اصلهُ من كوردستان وهاجر الى قونية واقام بها فكتب اليهِ يشكو حالهُ فلم يأتهِ منهُ جواب يروي غلتهُ . وبعد ايام حضر احد التجار وأخبرهُ بان عمَّهُ توفي وترك املاكاً واسعة وليس لهُ وارث غيره فلم يجد ابرهيم مندوحةً عن السفر الى قونية ولكنهُ حار في امر اختهِ لانها لا تستطيع مرافقتهُ الى تلك البلاد القاصية ودون ذلك مشاق واخطار والسفر قطعة من العذاب ، ولا يجمل بهِ ان يودعها بيت الشيخ مروان قبل زواجها بابنهِ خالد ، وليس في طاقتهِ القيام بمعدات زواجها وهو على هذه الحال من ضيق ذات اليد . ولما تقابل مع السيد سليمان اخبرهُ بالامر فقال لهُ : ان اختك كابنتي هند ولا خوف عليها اذا ابقيتها عندي الى ان تعود فطاب ابرهيم نفساً ثم تزوَّد للرحيل و ودع اختهُ بيت السيد سليمان و بعد ان ودَّعها سافر مع قافلة عائدة الى قونية . ولما وصل اليها كتب الى اختهِ كتاباً وحمَّلهُ احد التجار المسافرين الى مصر . وكانت سامية قبل وصول كتاب اخيها لا تستقرُّ على حال ولا

يهدأ لها بال فساورها من الهم ما برّح بها واضناها ، فشبت بها زوجة السيد سليمان عناية الام بابنتها وكانت هند لا تفارقها نهاراً وليلاً ، ومراد يساعدها في خدمتها . ولما عوفيت من مرضها كانت تنزل مع هند الى حديقة الدار للتنزه . وفي ذات يوم نزلت كعادتها واذا بمراد مقبلٌ عليها فلما وقع نظره عليها احمرّت وجنتاها ونفرت كما تنفر الظبية الى كناسها وتوارت خلف شجرة ، وقد عبث الهواء بشعر كالليل منسدل على قدّ مهفهف رشيق ، فكانت هذه النظرة كسهم اصاب فؤادها وكان مراد قد افتتن بها منذ رآها وهي مريضة . ولما كان حديث العهد بالغرام فقد تمكّن هواها من قلبه

وكانت سامية تكتم ما بها ولكن دلائل الحب لا تخفى فهي كالطيب ينمّ عليه شذاه . وقد فطنت لذلك هند وكانت وافرة العقل موصوفة باصالة الرأي وبُعد النظر فقالت لها يوماً :

مالك يا سامية تغيّرت احوالك واراك دائماً في حزن وانقباض وتميلين الى العزلة والانفراد . قالت : ان قلبي معذّب لفراق اخي وقد طالت غيبتهُ عني فمتى يعود

قالت : اخوك بخير وعن قريب يحضر بالسلامة فبالله عليك لا تخفي عني شيئاً واصدقيني حقيقة امرك وسبب كدرك

قالت : اني لا انسى جميلكم ولا يكدرني شيء غير فراقكم ويا ليتني ابقى معكم طول العمر

قالت : هذا ما تتمناهُ لو لم تكوني وديعة عندنا حتى يعود اخوك ولتقترني بخالد

فتنفست الصعداء وعراها الاضطراب وقالت : لا اخفي عنك حقيقة امري فاعملي يا هند ان قلبي لا يميل لخالد

قالت : ان فضل خالد عليكم فوق كل فضل فقد جاد بنفسه لانقاذ ابيك من الموت وواساكم فيما رماكم بهِ الدهر من المصائب وهو شاب مهذب الاخلاق حميد الصفات كريم الحسب ويجمل بكِ ان تقابلي جميلهُ بمثلهِ

قالت : انني لا انكر فضل خالد علينا واحبهُ حب الابنة لابيها او الاخت لاخيها ولكن لا بدّ في الزواج من ائتلاف القلوب

وبينما هما في الحديث حضر مراد فانكفأت سامية الى حجرتها ولما دخلت هند باخيها قال لها:

اراك يا اختاه تحيين سامية ولا تصبرين عنها ساعة وانت ادرى مني بما هي عليهِ من الادب والكمال فيا ليتها تكون من نصيبنا فيتمّ بذلك هناؤنا

قالت : لو تحققت هذه الامنية يا مراد لفضت عليك وعليها بالبؤس والشقاء . نعم اني

احب هذه الفتاة لما تحلت به من محاسن الصفات فهي كوردة ناضرة ولكنها محفوفة بالاشواك الم تعلم انها لخالد وانك ان سلبتهُ اياها قطعت بيدك ما بينك وبينهُ من عُرى الصداقة والولاء

قال : ان حبي لسامية حبٌّ طاهرٌ نقي لكِ

قالت : لا اخالُ الامر كما تتوهم فقد تملك هواها قلبك أراك في وحشةٍ وانقباضٍ واراى حبك لي قد تبدّل بالاعراض والجفاء

فتأثر مراد من مقال اختهِ ، وكان يحبها حبًّا شديداً ، وقال لها :

مهما بلغ حبُّ سامية من قلبي فلا يكدّر صفو حبي لك يا اختاه

ولما رأت هند حالَ اخيها خشيت عاقبة الامر وارادت مداواة الداء قبل ان يستفحل الامر ويعزّ الدواء ولم تجد لذلك من وسيلة غير الانتقال بسامية الى بيت آخر من بيوت ابيها عساها ان تسلو مراداً و يسلوها . ولما علمت سامية بنيّة هند شق عليها الامر وقالت لها :

ان كان حبي لمراد يلجئك الى الافتراق عنهُ فانا اهجر هذه الدار وارحل الى الصعيد عند احد المماليك الذين يعرفون ابي

فقالت هند : افعلي يا سامية ان اخاك قد ائتمنا عليك ويجب ان نردّ اليهِ وديعتهُ كما سلمها الينا فتبصري في الامر . والحب مهما بلغت صولتهُ فليس لسلطانهِ دوام

***

ما زال مراد بين نارين ، لوعة الحب وواجب الوفاء . فالحب يُعذّبهُ و يُضنيهِ وعقلهُ يناجيهِ بحفظ عهود الصداقة والولاء ، حتى برّح بهِ الوجد فرض مرضاً اشرف فيهِ على التلف . ولما رأتهُ سامية على هذه الحال دخلت يوماً الى حجرتهِ فلما رآها مقبلة عليهِ خفق قلبهُ وشعر كأنهُ كان ميتاً وعادت اليهِ الحياة وقال لها وهو يرتجف :

اتجودين عليَّ يا سامية بما فيهِ شفائي وسلامتي

قالت : وأفديك بمهجتي وحياتي

قال : تعلمين مكانتك من قلبي ، وقد اصبحت في بؤس و يأس فقد برّى المرضُ جسمي وسطا الدهر على املي . وكلما حدثتني النفس بفراقك تزداد لوعتي وتشتد علتي لما يتنازعني من عوامل الحبّ لك والوفاء لخالد . وهل يحلُّ لي ان اسلبهُ وديعتهُ وافصم ما بيني و بينهُ من روابط الصداقة والاخاء ، فوالله لموتي اهونُ عليَّ مما أنا فيهِ

قالت : وقد اسودت الدنيا في عينيها ، ان ابيت الاقتران بي فلا اريد ان اكون لخالد ولا لغيره ويشهد الله .....

وقبل ان تتم كلامها دخلت هند ودفعت اليها كتاباً من ابرهيم يقول فيه انهُ احصى تركة عمهِ وتاهب للسفر الى مصر فاطأنت سامية على اخيها ولكنها ما زالت هائمة في مهامهِ الهموم والافكار وكلما مرَّت عليها الايام تزداد سقماً ونحولاً . ولما علمت اخت السيد سليمان باعتلال صحتها دعتها الى الاقامة معها في دارها بالجيزة وكانت هذه الدار على شاطئ النيل تحدق بها حديقة غناء وفيها من الاثمار والازهار ما تشتهيهِ النفس وتقرّ بهِ العين ولما حضر السيد سليمان استأذنتهُ سامية فاجابها الى ما ارادت فنزلت في زورق ومعها احدى الجواري ولما صار الزورق بالقرب من الجيزة هبَّت ريحٌ عاصفةٌ فلم يقوَ على مقاومتها فاخذت تتقاذفهُ الامواج ودفعهُ التيار فانقلب وغاص في النيل بمن فيهِ ولم ينجُ منهُ غير صاحبهِ فعاد واخبر مراداً بما حدث فجزع جزعاً شديداً وعمَّ الحزن بيت السيد سليمان وندمت هند لانها لم تكاشف احداً بامر سامية فكان ضميرها يعذّبها وقلبها يكاد يذوب حسرةً على هذه الفتاة التي ذهبت ضحية الحب . امَّا خالد فانهُ لما علم بالامر احتوتهُ رعدة من شدَّة الجزع وكاد يموت حزناً على من كان يحبها ويتأهب للاقتران بها

مضى شهران على هذه الفاجعة وخالد يُعاني ما يُعاني وكان لهُ اطيان في المنيا وآن اوان زرعها فسافر وهو واجم النفس مُشرَّدُ الفكر ونزل عند صاحبٍ لهُ وقبل ما يتعادّان في احوال الزراعة حضرت خادمةٌ واومأت الى صاحبهِ فخرج وبعد برهة عاد مكتئباً وهو يقول : والله لقد حرتُ في امر هذه البنت . وكان لهُ ابنة صغيرة اسمها زينب فظن خالد انهُ حدث لها امر فقال لهُ : اليست زينب بخير . قال هي بخير والحمد لله ولكن من مدة آوينا بنتاً يتيمة لما توسمناهُ فيها من الادب والكمال وكانت مريضة نحيلة شاحبة اللون وتعافت قليلاً ولكن تنتابها احياناً نوبات عصبية شديدة لم ينجع فيها دواء فقال خالد : ومن اين اتت قال : هذا ما لا نعلمهُ ولم تُبح لنا بهِ . فتذكر خالد سامية لان صورتها لم تبرح من مرآة خيالهِ وقال لهُ وهو في ذهول . اما علمت انها كانت غرقت في النيل فقال صاحبهُ مندهشاً : ومن اخبرك بذلك : فقال خالد : بالله عليك لا تحقر عنيَّ شيئاً لانهُ يهمني الوقوف على امر هذه الفتاة . قال نعم انها كانت غرقت واتفق مرور سفينة قاصدة الوجه القبلي فرأى احد رجالها جثةً طافيةً فانتشلها وهي في آخر رمق ولما وصلت الى المنيا استطلعت عنَّا لان زوجتي كانت تعرف امها وكان ابوها من امراء المماليك . فصرخ خالد : هي

سامية ! . . . . . ولم تخبرنا بامرها وقد كدنا نموت حزناً واسفاً على فقدها . قال : كانت في اشد حال من المرض بسبب الغرق . وفي الغد عاد بها خالد الى مصر مع صاحبه ولما صاروا الى دار السيد سليمان كان للقياها من الدهشة ما لا يوصف فقد همت العيون من شدة الفرح ودوى المكان بالهتاف والزغاريد ابتهاجاً بمن عادت الى الوجود بعد العدم

وبعد ايام حضر ابرهيم فتجددت الافراح بقدومه ولما رأى ما هي عليه اختهُ من السقم والذبول سألها عن السبب فقالت : هو المرض الذي اصابني في غيابك حزناً على فراقك

***

عادت سامية الى بيت ابيها وهي لا تدري اهي يقظة ام في منام وتخيلت الايام التي قضتها في دار حبيبها كطيف خيال او كحلم لذيذ لم تبق غير ذكراهُ فكان لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل عيناها بنوم ولكنها كانت تخفي الكمد وتظهر الجلد واذا حضر اخوها قابلهُ بالبشر والبشاشة وفي قلبها جوى يتضرم . ودخل ابرهيم يوماً بغتةً فرآها تبكي فقال لها : اما كفى ما جرى لنا يا سامية حتى تجددي الاحزان فلنحمد الله الذي عوّض صبرنا خيراً واولانا من انعمهِ ما لم يكن في حسبان فاصبحنا في سعةٍ ويسرٍ بعد الضيق والعسر قالت : البركة فيك يا ابرهيم ورب ما لا يحرمني منك فما دمت انت بخير انا لا احمل هماً شيء في الدنيا

هذا ما كان من امر سامية اما خالد فانهُ بعد حضور ابرهيم شرع في اعداد معدات الزواج ولما عملت بذلك هند رأت ان تخبرهُ بما حدث ورغبت اليهِ ان لا يخبر ابرهيم بشيء حذراً مما لا تحمد عقباهُ . فجزع خالد ولكنهُ كظم غيظهُ وقال ان لي كلمة اقولها لسامية وفيها فصل الخطاب . فاستدعتها هند فحضرت عندها ووقفت وراء ستر وهي في هلع واضطراب فقال لها خالد : عودي الى رشدك يا سامية والحمد لله على سلامتك التي هي غاية ما اتمناهُ واعلمي اني لست بباغٍ او ظالمٍ ولا ابغي غير سعادتك وهنائك فقد وقفت على دخيلة الامر ويعزّ عليَّ ان اكدر صفو ولائي وصداقتي لمراد باقترانهِ بمن تحبهُ ويحبها وقد نزلت عنك لهُ عن طيب نفسٍ فبارك الله لك فيهِ

فتأثرت سامية وفاضت مدامعها ثم ودّعها وذهب الى بيت السيد سليمان وخلا بمراد وقال لهُ :

الستُ يا مراد بصديقك

قال : انت اعز صديق لي

قال : فلمَ لم تبح لي بحقيقة الامر . وسامية طاهرة القلب رقيقة الشعور وقد استأسرتها بادبك ولطفك وما اسديتهُ اليها من جميلك وعطفك . فتملك حبك قلبها . ولو علمتُ الامر

من قبل لما عقدتُ النية على الاقتران بها وحرمانها ممن تحبهُ ولا تبغي منهُ بديلاً

قال : وحق الشرف وذمة العرَب . . . . . .

فقاطعهُ خالد وقال : لا تقسم بشيء فاني اعدّ ذلك سُبّةً واهانةً لي ولك اتحسب يا مراد اني في ريب من ولائك ووفائك

قال : ان ابيتَ الاقتران بسامية فانا لا ارضاها زوجةً لي

قال : لا نقلّ ذلك لمن يريد لك ما يريدهُ لنفسهِ ، واعلم ان الوفاء عندي فوق الحب . والدليل على ما اقول اني سأعقد على ابنة عمي سُعاد ويتم لي ولك الهناء وتدوم مودتنا في صفاء . وما اعددتهُ لسامية من التحف والهدايا كزوج اهديه اليها كاخ

وبعد ايام عقد خالد على ابنة عمهِ سعاد فلم يبقَ لمرادٍ عذرٌ في الامتناع عن الاقتران بسامية وكان يعلل النفس بشفائها ليفاوض اخاها في هذا الامر وقد اخبر المسيو جومار بما حدث فتعجب اشد العجب وقال : انى ما سمعتُ بمثل هذا الاخلاص والولاء وتعلّب الوفاء على الحب فلله درّ العرب لقد فاقوا الورى طراً في الشهامة والاباء . ولم يزل مراد في خدمة المسيو جومار . وفي ذات يوم ذهب الى الحسينية لامر ما ، وبينما هو عائد رأى عند باب الفتوح جمًا غفيراً من السوقة والرعاع وبايديهم عصي واسلحة . واذا بكتيبة من فرسان الفرنسيس قد اتت لاخماد هذه الثورة لئلاّ تستعر نارها ويتسع نطاقها كما حدث قبلاً من الفتن التي استفحل امرها واشتد لهيبها في اماكن كثيرة في القاهرة وقُتل فيها الجنرال دبوي وسالكوسكي من اركان حرب نابوليون فقاوم المتجمهرون مقاومةً شديدة فاحاطت بهم الفرسان واصلوهم ناراً حامية . ولما كان مراد بالقرب من المعركة اصابتهُ رصاصة فكانت القاضية عليهِ فتبدّدت الافراح في بيت ابيهِ بالاكدار والاتراح وحزن عليهِ المسيو جومار حزناً شديداً لانهُ كان يحبهُ ولهُ عندهُ منزلة كبيرة

اما سامية فكانت لم تزل في اعتلالٍ من صدمة الفرق وقد اخذ الضعف منها مأخذهُ حتى اصبحت في حال لا تبرحها الاساة ولا تشفيها الرقاة وكانت عند تتردد الى قصر ابرهيم لتواسيها وتسليها . فلما مضت ايام ولم تحضر كعادتها بسبب موت اخيها سألت سامية عنها فقالت لها احدى الجواري ان اخاها اصيب برصاصة في الطريق من عساكر الفرنساوية فقضت عليهِ فصعقت صعقة شديدة واغمي عليها . فحضر ابرهيم وجميع من في القصر لاسعافها وبينما هم في اضطراب وهلع واذا بسامية قد سمت روحها الى لقاء الحبيب واودت يدُ الردى بذلك الغصن الرطيب (تمت)

حبيب غزالة